دور قصور الجنوب الغربي الجزائري في تجارة الصحراء ببلاد المغرب الأوسط
خلال القرنين 7هـ - 9هـ / 13م -15م

أ.بيدي محمد
جامعة طاهري محمد – بشار

مقدمة

بعد سقوط الدولة الموحدية في موقعة حصن العقاب سنة 609هـ / 1212م عرف المغرب الاسلامي قيام ثلاث دويلات مستقلة : الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى والدولة المرينية بالمغرب الأقصى والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط ، هذه الأخيرة كانت همزة وصل بين أقطار المغرب الاسلامي الشمالية والصحراء ، فموقعها الجغرافي المميز جعل منها مركز اشعاع حضاري وثقافي وذلك بفضل الدور الذي لعبته الطرق التجارية في ربط هذه الدولة بدول المغرب الاسلامي وقصور الجنوب الغربي الجزائري حيث ساهمت الطرق التجارية في انتعاش الحياة الاقتصادية للدولة الزيانية .فكثرة القصور بالجنوب الغربي الجزائري وهي المنطقة المعروفة باسم منطقة جبال القصور وما تحتويه من نشاط تجاري وسلع مختلفة وشبكة الطرق التجارية التي تخترق هذه المناطق جعلت من الدولة الزيانية تحتل مكانة هامة في مجالات مختلفة منها المجال الاقتصادي والثقافي .

الموقع الجغرافي للدولة الزيانية :

يحد الدولة الزيانية من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الحدود الفاصلة بين المغرب وبلاد السودان وفجيج في الغرب والجنوب الغربي أي منطقة جبال القصور موضوع الدراسة وإلى بلاد تاوريرت أحيانا والتي تقع غربي مدينة وجدة ، بينما في الناحية الجنوبية إلى نواحي ورجلان وغرداية وتوات ([1]) حيث وصف حسن الوزان موقعها ويرى أنه يفصلها من الغرب عن مملكة فاس واد زاغ ونهر ملوية ومن الشرق يحدها على بلاد افريقية الوادي الكبير ([2])

لكن هذه الحدود لم تكن واضحة ومستقرة المعالم بسبب الظروف السياسية التي كانت تتعرض لها حدود الدولة الزيانية لأن طبيعة العلاقة السياسي انذاك كاتن تخضع لمستوى الدولة وقدرتها على حماية حدودها وذلك حسب قوة السلاطين وضعفهم مما أدى إلى التذبذب حدود الدولة الزيانية ، وتعتبر تلمسان عاصمة الدولة والتي كانت تجمع بين التل والصحراء .

[1] - لخضر عبدلي ، تاريخ مملكة في عهد بني زيان 633-962هـ/1236-1554م ،دار الأوطان ، تلمسان، 2011،ص 73.

[2]- حسن الوزان ، وصف افريقيا ، ترجمة حجي محمد والأخضر محمد ج2 ، دار الغرب الاسلامي ، لبنان ، 1983 ،ص 07.

علاقة قصور الجنوب الغربي بتلمسان الزيانية :

لقد عرفت تلمسان استقرارا اقتصاديا انتقلت فيه من البداوة إلى الحضارة باعتبارها منطقة فلاحية بطبيعة أراضيها ، تجارية بطبيعة موقعها ، صناعية بطبيعة سكانها الأصليين [(3)]اهتمت دولة بني زيان بالانتعاش الاقتصادي واحتلت مكانة قيادية في التجارة بالمنطقة ولهذا كانت تتمتع بخصائص جغرافية واقتصادية ، فكانت التجارة رائجة بالمغرب الأوسط لاسيما بتلمسان ، فعلاقاتها التجارية كانت قوية مع المغرب وقصور الجنوب الغربي والبلاد الاستوائية والأندلس وغيرها ([4]).

وكان لتلمسان موقع مميز جعلها تخوض غمار التجارة ومقصد للتجار من مختلف المناطق والآفاق لاسيما منطقة جبال الأطلس الصحراوي عامة ومنطقة قصور الجنوب الغربي الجزائري خاصة مما نتج عنها حركة تجارية دؤوبة مكنت من انتعاش تجارتها ، كما تعتبر من أبرز حواضر المغرب الأوسط وهو الذي جعلها تتحكم في مختلف طرق القوافل التجارية .

كما تعتبر أيضا قصور الجنوب الغربي الجزائري مركز أعمال ومقر صناعة وتجارة هامة بشمال الصحراء ، فقد سهل لها موقعها الجغرافي ووجودها في مكان تلتقي فيه الطرق التجارية الكبيرة حيث كانت سوقا عامة لمختلف السلع والبضائع المتباينة القادمة من وراء البحر الأبيض المتوسط وبلاد المغرب والمشرق وجنوب الصحراء .كما نجد أن منطقة قصور الجنوب الغربي تحت سلطة الدولة الزيانية كانت عموما تقع على الطرق الثلاثة التي تربط الشرق بالغرب وهي طريق داخلي ويمتد عبر الهضاب العليا ويمر بالجريد ثم يعرج على الأوراس وأخيرا ينتهي إلى تازة في الشمال الغربي للمغرب الأقصى مارا بتلمسان [(5)]

ظلت قصور الجنوب الغربي الجزائري تتحكم في الطرق التجارية مما جعلها تمتاز بالثراء والرفاهية وذلك بفضل الأسواق الموسمية والأسبوعية والدائمة التي وجدت فيها ورشات للحياكة والدكاكين للخياطة وغيرها من المهن وقد تنوعت السلع داخل أسواق هذه القصور واشتهرت كل منها لنوع معين من المعروضات ، فالبعض اختص بالتجارة في المحاصيل الزراعية والبعض الآخر في المنتوجات الحيوانية والآخر في المنتوجات الصناعية ، وقد كان هناك تكامل بين الأسواق بواسطة تبادل السلع بين القصور والمدن والقرى وحتى بين سكان البدو الرحل [(6)]

ويذكر حسن الوزان أن التجار كانوا أناس منصفون وأمناء في تجارتهم ويحرصون على أن تكون مدنهم مزدهرة بالمؤن على أحسن وجه والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة ويحبون التمتع

---

[3] - مبارك الميلي ، تارخ الجزائر القديم والحديث ،ج3 ،دار الكتاب العربي ، 2007 ،ص 140 .

[4] - محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 ، ص 236 .

[5]- رشيد بورويبة،الجزائر في التاريخ،العهد الاسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني،المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984 ،ص478

[6]- مختار حساني ،تاريخ الدولة الزيانية،الأحوال الاقتصادية والثقافية،ج2،منشورات الحضارة،2009،ص44 .

بالحياة[7] . التجارة هي الأخرى شهدت تطورا كبيرا بفضل موقع قصور الجنوب الغربي الجزائري الاستراتيجي الذي جعل منها منطقة عبور تجاري ومحطات تجارية هامة في حلقة التواصل القائم بين الشرق والغرب وكذا الشمال والجنوب وهذا ما اعطاها الثراء وأوصلها إلى مصادر الثروة .

تعد منطقة جبال القصور (الجنوب الغربي) محورا تجاريا متميزا فهي تقع على الطريق التجاري الواصل بين افريقيا الغربية من ناحية وبين تلمسان وبلاد الأندلس من ناحية أخرى ، فكان تجارها يصدرون إلى الأندلس ما كانوا يقتنون من البضائع في رحلاتهم إلى بلاد السودان الغربي ، وكان الذهب في مقدمتها [8]

فانتقل بذلك النشاط التجاري من الاطار المحلي الداخلي إلى العالم الخارجي ، فسارت القوافل في كل الاتجاهات تحمل سلع مختلفة في ذهابها وقد كانت هذه الحركة نشطة ومزدهرة ويعد ذلك لعدة عوامل نذكر منها :

1- طرق القوافل التجارية :

كانت للمسالك التجارية دور في ربط العلاقات بين منطقة جبال القصور والجنوب الغربي الجزائري وتلمسان عاصمة الدولة الزيانية وبلاد السودان الغربي حيث لم تكن الصحراء تشكل عائقا دون الاتصال الحضاري المثمر الذي استفادت منه القارة الافريقية وكانت المبادلات التجارية بينهم تتم عبر طريقين رئيسيين : [9]

الأول : الطريق من تلمسان إلى تازة ففاس ثم تادلا فشعب الصفا ومنها إلى تقريش ثم إلى سجلماسة فبلاد السودان الغربي وحسب ابن حوقل أيضا فإن القوافل التجارية القادمة من تلمسان كانت تعبر بلاد السودان الغربي عبر سجلماسة ، وذكر أنها أنها كانت تجتاز بلاد المغرب إلى سجلماسة كي تعبر بعد ذلك إلى السودان ورغم طول هذا الطريق إلا أن القوافل التجارية كانت تقصده لأنه آمن من اللصوص . [10] وكان طريق سجلماسة أودغست أو سجلماسة تغازي تمر به القوافل التجارية في منتصف القرن 8هـ / 14م ، وهناك طريق آخر ينحدر من سجلماسة إلى تغازي ومنها إلى تمبكتو [11]

والثاني : الطريق الذي يربط تلمسان بتوات عبر وادي مفروش باتجاه سبدو حيث يمكن للقوافل اجتياز السهول العليا ومنها تتجه نحو توات ثم بلاد السودان الغربي ، وهناك طريق غدامس غات إلى إير ومنها إلى ممالك الحوصة ، ولم يظهر طريق فزان كوار إلا قليلا ولكنه لايوجد شك أنه هو أسهل

---

7 - حسن الوزان ، نفس المرجع السابق ، ص 21 .

8- محمود أغا ، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ/15م،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1982،ص 30

9- خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ،دراسة تاريخية 633-684هـ/1235-1282م،دار الألمعية ،2011 ص 249

10- ابن حوقل ، صورة الأرض ، مطبعة بريل ليدن ، 1983 ، ص 65 .

11- نبيلة حسن محمد،في تاريخ افريقيا الاسلامية ، دار الألمعية الجامعية ، الجزائر ،2013 ، ص 141 .

طريق للقوافل عبر الصحراء كان استعماله دائما وبالرغم من أن الطريق فزان كوار كان يحمل كمية كبيرة من الملح في اتجاه الجنوب ، فإن كان أساسا طريقا للعبيد الذين كانوا يمثلون حينذاك سلعة من أهم السلع [12].

وكان المغاربة يمرون من تونس وطرابلس وتديكلت وقورارة تمنطيط ثم عين صالح مشرية وعين الصفراء وفاس ليصلوا إلى عواصم السودان الغربي [13] . وكانت الطرق البرية التي تربط منطقة جبال القصور والجنوب الغربي بتلمسان وبلاد السودان الغربي تمر بالحمادات التي تحولت فيما بعد إلى مدن تجارية مثل سجلماسة وتوات وتغازي ، فكانت هذه القوافل التجارية تجتاز المغرب إلى سجلماسة باستمرار دون انقطاع وهذا دليل على غزارة التبادل عبر هذا الطريق [14]

ومن هنا يمكن القول بأن الطرق التجارية لعبت دورا كبيرا في تنشيط التجارة بين بلاد السودان الغربي ومنطقة جبال القصور وتلمسان مما جعل التجار يندفعون نحو هذه التجارة وأقاموا علاقات جيدة وقد وصلوا بها إلى السنغال والنيجر حيث كان السودان الغربي دعما لبعض جوانب الحضارة الاسلامية لما وفره من العاج الأسود الأبنوس [15] . ولتأمين الطرق التجارية قامت القبائل المجاورة للطريق بحراسة هذه القوافل من اللصوص وقطاع الطرق .

2- السلع وطرق التبادل التجاري :

زادت التجارة مع بلاد السودان الغربي فأصبحت تلمسان ومنطقة قصور الجنوب الغربي محتكرة للتجارة معها وأصبحت التجارة رائجة في هذه الأقاليم في الكثير من السلع التي كانت في بلاد المغرب الأوسط تستوردها من الخارج على سبيل المبادلة كالزجاج والأجهزة والعتاد المختلفة ، أو تصدرها من بضائع لبلاد السودان الغربي كالتبر المسبوك والذهب والعاج والحرير والكتب والجلد والمرجان والرقيق [16] .أما السلع التي كان يتم ارسالها إلى بلاد السودان هي المنسوجات ، الأسلحة بأنواعها والمصنوعات الزجاجية ، العطور ، القرنفل ، البخور،المنتوجات الزراعية ،وكانت هذه القصور تشتري من السودان الغربي الرقيق والذهب والنحاس وريش النعام والفول السوداني [17] .

12- نبيلة حسن محمد ، نفس المرجع السابق ، ص 144 .
13- مبروك مقدم، الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الامارة الاسلامية لافريقية الغربية خلال القرن 9هـ/15م ، دار الغرب ، الجزائر ، 2006 ،ص 53 .
14 - ابن حوقل ، نفس المرجع السابق ، ص 61 .
15-عمار غرايسة ، الأدوار الحضارية للمدن الصحراوية ،ورجلان أنموذجا،حوليات تاريخ وجغرافيا،العدد5 ،المركزالجامعي الوادي ، 2011 ، ص 99 .
16 - عبد الرحمن الجيلالي ،تاريخ الجزائر العام ،ج2، دار الأمة ، الجزائر ، ب ت ، 242 .
17- بوزيان الدراجي ،نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيا نية ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1993 ص 215

وخلاصة القول فإن صحراء الجنوب الغربي بالمغرب الأوسط يوجد بها قصور متعددة أطلق عليها اسم منطقة جبال القصور تمتد من المشرق إلى المغرب محطات لراحة القوافل والتجار المترددين للمغرب إلى بلد مالي من السودان الغربي لهذا العهد ومن بلد مالي إليه .وقد واجهت التجارة مع بلاد السودان مشاكل في المسالك كوجود حيوانات ضارية وشدة الحرارة وقلة المياه في المناطق الصحراوية مما جعلها تشتد في فصل الشتاء وزاد التأثير والخطر في القرن 9هـ / 15م بضعف قوة الممالك في السودان الغربي ، وتنامي خطر القبائل التي تصدت للتجارة والقوافل التجارية .